تحولات الأنا والآخر في نصوص "عودة حمار الحكيم –محاورات حرة مع حمار حر-" لمحمد زتيلي

الطالبة رتيبة بوطغان
باحثة في طور الدكتوراه
جامعة: محمد الصديق بن يحي -جيجل-.

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى معرفة التحولات التي تطرأ على ثنائية الأنا والآخر في النصوص الأدبية، وبالتحديد في نصوص "عودة حمار الحكيم – محاورات حرة مع حمار حر-" للكاتب الجزائري محمد زتيلي، ففي هذه المدونة نجد أن الأنا تسترت تحت أقنعة متعددة، في محاولتها كشف خصائص ومضمرات هذا الآخر، فمن ثنائية: الكاتب/حمار الحكيم إلى ثنائية: العرب/الغرب، ثم ثنائية: المثقف/السلطة، واختلاف الثنائيات أدى – بدوره - إلى اختلاف العلاقات القائمة بينها.

الكلمات المفاتيح: الأنا، الآخر، حمار الحكيم، محمدزتيلي، المثقف، السلطة.

Résumé

à travers la présente recherche, l'objectif à atteindre consiste en la maitrise des transformations susceptibles d'affecter la dualité entre le moi et l'autre dans les textes littéraires , notamment dans le récit du « retour de l'âne du sage et les libres conversations avec l'âne libre » de l'écrivain Algérien Mohammed ZETILI.

Dans cette nomenclature, nous concluons que le moi caché sous ses plusieurs masques, dans la tentative de découvrir ses caractères et ses sous entendus.

De la dualité entre l'écrivain / âne du sage à la dualité arabe/ occident pour arriver en fin à la dualité entre l'intellectuel et le pouvoir.

La disparité qui caractérise ces dualités à conduit à la diversité des relations qui les lient.

Les mots clés : Le moi, L'autre, L'âne du sage, Mohammed ZETILI, L'intellectuel, Le pouvoir .

تقديم:

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الموضوع الأنا والآخر، وخاصة الدراسات المعاصرة التي انطوت تحت ما يعرف بالدراسات الثقافية، هذه الأخيرة التي فتحت الأبواب على أفكار ومجالات جديدة لم تكن مطروقة من ذي قبل، ومن أهم هذه الأفكار: فكرة حوار الحضارات، وهي بدورها فتحت مجالات متعددة ومختلفة، متعددة بتعدد النقاد ومشاربهم، ومختلفة باختلاف مستوياتهم.

من هنا انطلقت الدراسات النقدية المتجهة نحو معرفة الآخر، أيا كان نوع هذا الأخير، وهذا من باب محاولة البحث عن نوع العلاقة الموجودة بين الأنا والآخر، هذه الثنائية التي تتعدد وتتغيّر بتغيّر النصوص الأدبية. إلا أن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الذات لايمكن أن تدرك ذاتها إلا إذا تم «الإدراك عبر الغير دائما بالتفاعل الرمزي معه، سلسلة من الأفعال وردود الأفعال، الأحكام والتقييمات المستمرة، وبرسائل رمزية متبادلة، ولا يتم الوعي الوجودي بالذات كما لايتم بناؤها وتطويرها، إلا من خلال"الآخر" بإدراكه والوعي به بتفسير دوره ومفاوضة مكانته»[1]

وانطلاقا مما سبق ذكره، يحاول هذا البحث أن يرصد تحولات الأنا والآخر في نصوص "عودة حمار الحكيم"، للكاتب الجزائري محمد زتيلي[2]، هذه النصوص التي صاغها الكاتب في قالب روائي مميز، يجمع بين السخرية والانتقاد: انتقاد للسلطة، وانتقاد للمجتمع، وانتقاد للوضع الثقافي الراهن، وبذلك تنوعت موضوعات هذه النصوص من سياسية إلى اجتماعية إلى ثقافية.

وبتنوع الموضوعات، تنوعت صور ثنائية الأنا والآخر وتعددت أشكالها من موضع إلى آخر، حيث نجدها تنتقل من ثنائية الكاتب/حمار الحكيم، إلى ثنائية العرب/الغرب، وفي أحيان كثيرة تطغى ثنائية المثقف/السلطة على موضوعات هذه النصوص:

الأنا	الآخر
الكاتب	حمار الحكيم
العرب	الغرب
المثقف	السلطة

وقد بُنيت هذه الثنائيات على شخصيتين فقط: شخصية الكاتب وهو أديب من أدباء الجزائر، وشخصية حمار الحكيم الذي عاد إلى الجزائر للمرة الثانية، بعد زيارته الأولى التي رافق فيها الأديب أحمد رضا حوحو.

معرفة الذات إذن، تتحقق من خلال معرفة الآخر، إذا كانت هذه هي الحقيقة التي لابد منها فما هي إذن صورة هذا الآخر في مخيال محمد زتيلي؟ هل تعددت أشكال هذا الآخر؟ أم أنها بقيت ثابتة على حالها من بداية النص إلى نهايته؟

1 ـــ ثنائية الكاتب/ حمار الحكيم:

وهي الثنائية التي تمثلت -غالبا- في قيام الكاتب بعرض بعض الصفات والتصورات الخاصة بالمجتمع من خلال شخصه، ليقوم هذا الآخر (حمار الحكيم) بنقدها وعرض منطقه وأفكاره حولها. كما يحاول -الكاتب- متعمدا التعرف على « كثير من الحكم والفلسفة التي اتصف بها هذا الحيوان الأليف المحبوب المثقف ثقافة عالية في رحلة معاناته مع الإنسان و غدره وقسوته»[3].وهذا من أجل إبرازها ومقارنتها بأفكاره باعتباره – أي الأديب- ممثلا لهذا المجتمع.

فمثلا عندما حضر الحمار إلى الجزائر وبدأ في نقد الأدباء وكتاباتهم «انفضوا من حوله معتذرين له، مفتعلا كلا منهم أشغالا تنتظره»[4]

وفي هذا دلالة واضحة على رفضهم للنقد الموضوعي، باعتبار أن علاقاتهم مبنية على المجاملات، هذا ما جعل الحمار يتساءل حول هذا الموقف الذي يتنافى وكرم الضيافة قائلا: كيف يرفضون الرأي والحوار إلى هذا الحد، أ فتظنّ أنهم أدباء حقا أصحابك هؤلاء؟، ليؤكد الحمار على أنهم - معشر الحمير- «معروفون بالجد والصبر على الشدائد والصعاب، والعمل طول النهار»[5]، وفي هذا يختلف الكاتب قليلا عن الأدباء الآخرين، فقد فضل البقاء مع الحمار رغم تعرض هذا الأخير لنقد كتاباته هو الآخر.

لقد بُنيت العلاقة القائمة بين الكاتب وحمار الحكيم على تقديم هذا الأخير النّصح له دائما، وفي شتى المواقف والمواضيع، يقول:

ـ «عليك أن تواجه الحقيقة بشجاعة وجها لوجه

ـ عليك أن تسلط ضوءا كثيفا للنقاد إلى الأعماق

ـ عليك أن تستفيد من كافة الطرق و الوسائل

ـ عليك أن تحارب بسلاح عدوك لتكسره

ـ عليك أن تكون مثاليا في عصر اختلال المثل والقيم العليا»[6]

وتختلف الأنا عن الآخر – في هذه الثنائية- في مسائل كثيرة، كمسألة بحث الأدباء عن الشهرة، فالراوي يرى أن الأمر عادي جدا، أما حمار الحكيم فيعترض على هذه المسألة، ليعدل الكاتب في الأخير عن رأيه ويقتنع برأي الحمار معربا أنه على الكاتب أن يبحث «عن الطريق التي توصله إلى القلوب بدلا من واجهات الصحف وشاشات التلفزيون فإن هذه الأخيرة نتيجة حقا وليست هدفا»[7].

تتواصل انتقادات الحمار الموجهة إلى الكاتب وخاصة منها تلك التصرفات المعاملة التي طالت أفراد هذا المجتمع كسوء المعاملة، وهذا الحوار يؤكد ذلك:

«لا أقصد نظافة الثياب والذقون الحليقة على الرغم من أن هذا الأمر جميل إني أعني المعاملة، حسن المعاملة.

قلت للحمار:

أراك شديد التركيز على السلوك منذ حللت ببلادنا.

قال الحمار مؤكدا:

نحن معشر الحمير نهتم بالأخلاق والقيم الجميلة اهتماما خاصا، ونعمل على دعوة الناس على التحلي بها.

قاطعت الحمار وقد أحسست بشيء يثقل صدري على حين غفلة إن الأخلاق والقيم النبيلة المتأصلة في نفوسنا، لسنا في حاجة لمن يدعونا إليها ويعلّمنا إياها»[8]

بعد هذا النقد، يتدارك الحمار غضب الكاتب ليؤكد بأنه يعتبر نفسه مواطنا من هذه البلدان العربية التي يقصدها بدافع الحب، وهي في نظره أجزاء صغيرة، من هذا الكل الكبير الذي هو الوجود الحضاري لهذه الأمة العربية، وانطلاقا من هذه النقطة، تتحول ثنائية الأنا والآخر من الكاتب/ حمار الحكيم، إلى ثنائية العرب/ الغرب.

- ثنائية العرب/ الغرب:

انبنت هذه الثنائية هي الأخرى على تبجيل الكاتب لآراء حمار الحكيم وفضله على الأمة العربية، يقول في هذا الشأن: «لا يشك أحد في أنك مثقف أدى دوره على أكمل وجه، ولن ينسى لك التاريخ أفضالك على قومك»[9]. وتتشكل هذه الثنائية – عادة- عندما ينضم الحمار إلى الأديب ليجري مقارنة بين الواقع الاجتماعي أو الثقافي أو السياسي عند العرب وآخر عند العجم، وقد تجلى هذا بوضوح عندما سأل الراوي عن أحوال المقاهي في بلاد العجم، فأجاب الحمار:«لا تراها كثيرة العدد، وإذا دخلتها ألفيتها خاوية على عروشها يمكنك أن تجد عابر سبيل يرشف مشروبه واقفا، أو عجوزا في زاوية المقهى يطالع جريدته ويشرب شيئا ثم ينصرف»[10]

ويضيف: «لايشك أحد في أنك مثقف أدى دوره على أكمل وجه، ولن ينسى لك التاريخ أفضالك على قومك، فقد حفرت كلماتك في قلوبهم طريقا

إضافة إلى مسألة المقاهي، نجد مسألة أخرى من مسائل الاختلاف بين العرب والغرب، وهي مسألة القراءة ودورها في حياة الشعوب، فالحمار يقرأ كل الوقت ودون ملل. أما الكاتب فيشعره ذلك بالملل والصداع، ليؤكد الحمار أن «لكل امرئ من أمره ما تعود» [11]، ثم يضيف مخاطبا الكاتب:« لا تكن نفعيا فقط فتقيس كل ما تفعله بالنتائج التي تجنيها.

وبما أقيسها أيها الحمار المحترم؟

النتيجة في صنع الحضارة ليست كالنتيجة التي تحسب بموازين التجارة وآلات الحساب» [12]

وبما أن مجتمعاتنا العربية من المجتمعات النفعية، فقد تدهورت فيها الأمور والأفعال الأخرى، كالقراءة والعلم والأدب، هذا ما لم يفهمه الكاتب، ليعترف هذا الأخير بضعفه قائلا: «وجدت أني لا أفهم كثيرا ما يقوله الحمار، وشعرت بالحزن، فمنذ مدة وأنا أناقش ولكنني لم أكتشف فظاعة جهلي وضعفي سوى هذه الصبيحة»[13]

لقد اتخذ الكاتب من حمار الحكيم قناعا لانتقاداته الساخرة من هذا المجتمع، ليس المجتمع الجزائري فحسب، بل يقصد الوطن العربي بأكمله، وهو ما فتح له «مجالا واسعا للمراوغة والتمثيل والتمويه على المجتمع الرسمي الذي كان دائما موضوعا لتهكمه وسخريته اللاذعة»[14]، يقول الحمار:« لست مثل كثير منكم، إذا تكلم لا يقول أنا ولكنه يستعمل نحن وكأنه يرى في نفسه جماعة وهذه مصيبة أخرى تحتاج إلى دواء أصعب من دواء استعمال كلمة أنا»[15]، ويستغرب الحمار من هذه الظاهرة التي تكاد تسيطر سيطرة شبه تامة على الكلام في المجتمعات العربية، إذ لا يمكن أن يكون ضمير "الأنا" غائبا في أي حديث كان، ويتساءل قائلا: «ألا يوجد بشر يتحدثون عن الآخرين؟ عن موضوعات قام بها الآخرون؟[...] ألا يوجد لديكم غير الضمير المفرد المتكلم؟ فالأنا لا تحضر إلا لفتح مجال الحديث عن الضمائر الأخرى، وعلى هذه الضمائر أن تتحدث عن هذه الأنا إن كانت ترى فيها الأهمية»[16]، ولكن هذا هو حال متحدثينا، إذ لا تكاد تختفي الأنا في الجملة الأولى حتى تظهر في الجملة التي تليها.

ثنائية أخرى من أشكال ثنائية الأنا والآخر في هذا النص، وهي ثنائية المثقف/ السلطة حيث شغلت هذه الثنائية حيزا لا بأس به من الفضاء الدلالي لهذا النص، إذ لا تكاد تختفي من موضع حتى تظهر في الموضع الذي يليه.

- ثنائية المثقف/ السلطة:

هناك نوعان من الأنظمة السياسية: سلطة سياسية ديمقراطية وسلطة سياسية استبدادية، الأولى تقوم على مبدأ الحوار و الحرية، أما الثانية فتقوم على أساس الاحتكار والسيطرة وممارسة القمع والعنف إن تطلب ذلك، هذا الأخير الذي يطال كل من يعارض هذه السلطة أو يعترض على ممارساتها أو أهدافها.

وترتبط السلطة – عادة- ارتباطا وثيقا بمفهومي الخطاب والإيديولوجيا وقد قام بصياغتهما "فوكو"، هذا الأخير الذي حظيت أفكاره باهتمام النقاد والدارسين في مجال العلوم الاجتماعية والسياسية وحتى الأدب، ومن بين هؤلاء إدوارد سعيد، هذا الذي «وضع أفكاره موضع الاستثمار السياسي الفاعل من أجل النّهوض على الأقل بالضمير السياسي لأولئك الذين آمنوا، مخلصين، بفكرة الديمقراطية»[17]

السلطة إذن، تتّصل بالإيديولوجيا أكثر من أي شيء، إذ تعتمد على تنظيم وتبرير الأفكار التي تخدم مصالحها، كما ترتبط بمفهوم آخر وهو الهيمنة، وهذا ما تسعى السلطة دائما لتحقيقه باعتبار أن السلطة إذا طبقت مفهوم الهيمنة في الواقع تضمن بقاءها وقوتها واستمراريتها.

ولكن ما علاقة السلطة بالأدب يا ترى؟ و من هو المؤثر والمتأثر في هذه العلاقة؟ هل هي علاقة توافق وتداخل أم أنها علاقة تنافر وتناقض؟ ثم ماذا سيحدث لكلا الطرفين في حالة التوافق وفي حالة التنافر؟ ومن هو المتضرر ومن هو المستفيد؟

صحيح أن السلطة لم تعد اليوم في حاجة إلى المثقف وخدماته، ولكنها وفي الوقت نفسه لن تسمح له بمعارضة أهدافها وأيديولوجيتها المتبعة، فإن حاول فعل ذلك هُمّش ونُبذ، والطرق إلى هذا متعددة ومتنوعة، ومن هذه الطرق إحكام سيطرتها وهيمنتها على كل أجهزة الدولة بما فيها المؤسسات الثقافية.

ماذا ننتظر- إذن - من هذا المثقف في ظل هذه السلطة التي تحتكر لنفسها كل شيء قد يخدم صلاحياتها، هل نعاتب السلطة، أم نعاتب المثقف؟ أم أن كليهما متورط في هذه الجريمة، جريمة الوضع الثقافي المتردي الذي آلت إليه مجتمعاتنا العربية.

يعرّف "إدوارد سعيد" المثقف بأنه « المواطن المسؤول والمعارض الذي يسعى، دائما، إلى موضعة آرائه ومنظوراته خارج حقلي الدوغمائية والمواقف الحزبية الضيقة»[18] فقد رفض إدوارد سعيد أن ينتمي إلى أي جهة كانت سواء إلى مجلة أو محطة تلفزيونية، لأن الانتماء إلى هؤلاء يعني الخضوع لمواقفهم وسياستهم ولغتهم وقد كان يفضل تقديم المحاضرات في الجامعات، خاصة المحاضرات التي غلب عليها الطابع السياسي، ويعتقد بأن المثقف« فرد يتمتع بموهبة خاصة تمكنه من حمل رسالة ما، أو تمثيل وجهة نظر ما، أو موقف ما، أو فلسفة ما، أو رأي ما، وتجسيد ذلك والإفصاح عنه إلى مجتمع ما، وتمثيل ذلك باسم هذا المجتمع»[19] إلا أن التعريف الأشمل للمثقف هو ما ذكره المنظّر الإيطالي أنطونيو غرامشي في قوله أن المثقف هو«كل إنسان مثقف و إن لم تكن الثقافة مهنة له»[20]

إذا كان المثقف يجب أن يكون مسؤولا، والمسؤولية هنا بمعناها الواسع لا الضيق، ومعارضا لا خاضعا لكل ما يملى عليه، فكيف صوّر محمد زتيلي المثقف في علاقته بالسلطة؟ وهل السلطة في هذا النص هي سلطة ديمقراطية أم سلطة استبدادية؟

لقد استطاع هذا النص الروائي الإشارة إلى السلطة، وتعرية ممارساتها، إلا أن الحديث عنها جاء متفاوتا من موضع إلى آخر، فقد اعتمد الكاتب في هذا على الدلالات الإيحائية والمجازية، مبتعدا عن الدّلالات الواضحة والمكشوفة.

يؤكد الكاتب على أن هناك من البشر من يتبجحون بكلمات الديمقراطية وهم لا يفهمون ما يقولونه أصلا، ويؤكد على أن هؤلاء قد « كانوا قبل اليوم مثل الفئران والخفافيش والكلاب»[21]

ويتمنّى لو كان تحت تصرفه مليون عسكري ومائة ألف دبابة، ولكن، لماذا يريد هذه الترسنة ياترى؟ وضد من ستُستعمل؟

يجيب قائلا: «سأعلّمهم معنى الديمقراطية، معنى أن يقولوا كلاما فوق مستواهم، معنى أن يكونوا مسؤولين على كل كلمة تنبس بها شفاههم المتشققة وألسنتهم الطويلة»[22] وعندما لم يحدد الحمار موقفه من هذا الكلام يضيف الكاتب: « أنتم معشر الحمير لم تعانوا من الاضطهاد والقمع والتهميش، فلم تتوتر أعصابكم، ولهذا فأنتم لا تشعرون بمرارة ما نعانيه.»[23] وفي هذا دلالة واضحة على ما يعانيه المثقف من السياسيين، من الحكام، ومن الأنظمة السياسية كذلك.

من السياسة وحكامها إلى المؤسسات التي تمثلها، انتقل الحديث الذي يدور بين الكاتب وحمار الحكيم إلى الحديث عن بعض مؤسسات الدولة، فعندما سأل حمار الحكيم الكاتب عن المدرسة التي تخرّج منها، أجاب:« إنها مدرسة الواقع،

لقد تركنا المدارس للأغبياء، قال الحمار:" لست منهم، ولكن مدرسة الواقع لم تطردني لفشلي في الدراسة»[24] وكأنه بجوابه هذا يؤكد أن المدارس في بلادنا مسؤولة عن تخريج الأغبياء والعاطلين عن العمل.

في موضع آخر، وفي ظل النقد الموجّه لمؤسسات الدولة، يسأل الحمار عن سبب إغلاق الحديقة العمومية ليلا وعن الجهة المسؤولة عنها، فأجاب الكاتب:

«البلدية

قال الحمار:

وماذا تعني لفظة البلدية؟

قلت للحمار:

لست أدري، سأحضر لك في المرة القادمة قانونها لتطلع عليه.

قال الحمار على الفور:

ما قيمة شيء لا يعرف إلا بالعودة للأوراق، ما قيمته في الحياة؟»[25]وهذا معناه أن هذه المؤسسة لاتلعب دورها كما يجب، ولو لم يكن كذلك، لعرف الكاتب دورها على الفور دون اللّجوء إلى الأوراق، وحتى الحمار الصبور على الشدائد والقوي في مواجهتها، أعرب عن ضجره من ممارسات هذه المؤسسات من خلال تأكيده على أن الصبر له حدود.

وبما أن الحمار لا جنسية له لأنه ينتمي إلى كل البلدان العربية، فإنه يؤمن أو يطمح إلى تحقيق الوحدة العربية والعمل المشترك والمكثف بين جميع أقطارها، يؤمن كذلك« بضرورة العمل على تطبيق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفوارق الطبقية والنزاعات القبلية والعشائرية ومحاربة الفكر الغيبي، ومؤمن بضرورة التضحية المتواصلة من أجل انتشار القيم الديمقراطية في الممارسة العامة والخاصة لبناء وطن عربي متطور»[26]

ولكنه يؤكد في نفس الوقت أن هذا مشروع كبير، ولن يتحقق إلا عن طريق جهد الرجال، وكأنه هنا يشير إلى أن الوطن العربي خلا من الرجال بالمعنى الذي يقصده هو.

يُوسع حمار الحكيم دائرة الأحكام النقدية الموجهة للسلطة ليتوجه إلى الحكام العرب، إذ قدم انتقادات للأنظمة السياسية العربية وللحكام العرب وأساليبهم في الحكم، يقول: «كثرت المشاريع الكبيرة في هذه الأمة، وكثر الكلام، ويكفي أن تفتح محطة إذاعية من المحطات العربية الكثيرة لكي تسمع من الكلام الكثير الكثير، كل واحدة تشتم الأخرى، وكل واحدة تنسب إلى نظامها صفة الثورية، وتلصق بغيرها نقائض ذلك، والعجب أن الشعوب تصدق ما تسمع وكأنه منزل من السماء»[27]وهذا ما يوضح التشتت والفرقة الموجودة بين مختلف البلدان العربية، أما بخصوص الشعوب، فإن كان هذا هو رأي حمار الحكيم فإن الكاتب يؤكد على أن الشعوب لا تصدقما يقال، ولكنها في نفس الوقت لا تقول شيئا، وهو أمر محيِّر بالفعل! إذ ما الذي يجعل الشعوب لا تصدق ولا تعارض؟ ما الذي جعلها تؤول إلى هذا المآل يا ترى؟

في رفضه لكل أشكال التذلل للسلطة، يرفض حمار الحكيم المقارنة بينه وبين أبي حيان، هذا الأخير الذي يرى الكاتب بأن ظروفه متطابقة مع ظروف حمار الحكيم، يقول مبينا هذا التشابه: «كلاكما عالم واسع المعرفة، وفيلسوف ثاقب النظر، وأديب خبر الحياة خبرة حكيم، وصورها أبلغ تصوير، وكلاكما جحد علمه واحتقرت فلسفته، واستصغر أدبه، فعاش شظف الحياة كما أراك تعيشه، وطارده الجوع كما أراه يطاردك، وسكنه البرد كما أراه يسكنك، ولم يحالفك الحظ في حياتك كما لم يحالفه الحظ طول حياته»[28]، إلا أن الحمار يرفض هذه المقارنة رفضا تاما، ويؤكد أن هناك أوجه اختلاف أقوى من ذلك، لأن أبا حيان بحث طول حياته عن الحظوة لدى أولياء الأمور، وهي شمة ما أحببت أن تكون في نفس أديب مثله، فلأجل طموحه استصغر نفسه كثيرا.

يؤكد أحد الكتاب على أنه –وفي البلدان العربية- تم وضع « قوالب للتفكير والشعور(...) وسخرت الوسيلة الثقافية ،كما هو معلوم لخدمة السلطة، لذلك اعتبرت قناة بها يتم غرغرة الخطاب الرسمي للقاعدة الشعبية العريضة»[29]، وبهذا تم استغلال الأدباء والكُتاب لصالح السلطة، وفي هذا الصدد يروي الحمار ما حدث له مرة من طرف هؤلاء، يقول:«طلبوا مني أن أقول كلاما يرفضه الذوق والعقل والضمير، فقلت لهم قولوه أنتم للناس، فقالوا لي دون خجل، لو قلناه نحن لما سمعه أحد. فأنت مختص في الكلام وشهرتك التي أطبقت الآفاق تجعل كل كلام يصدر عنك قادرا على أن يحتل مكانته في القلوب»[30]

ويؤكد الحمار على أن «سياسته هي عدم ممارسة السياسة بمفهومها المباشر، لكون ذلك من عمل الدهاء من الناس يتخذونها وسيلة لتحقيق غايات لم يستطيعوا تحقيقها بالعلم والأدب»[31] وهذا معناه أن السياسيين ينتمون إلى فصيلة الفاشلين في الحياة، ويؤكد على عدم جدوى السياسة في تحقيق أي تغيير في تاريخ الشعوب، وهنا يستدل بقول سقراط:" لو كانت الانتخابات وسيلة لتخريج المهندسين والأطباء لكنت من أنصارها".

يذكر كذلك أنه عندما تنبأ بنزول الدبابات إلى الشوارع وما أصاب البلاد آنذاك، كان «موقف كاتب وأديب ولم يكن موقفا سياسيا، فحب البلد ليس ممارسة سياسية، والتعبير عنه لا يمكن أن تلوِّثه ألاعيب السياسة التي تؤديها الدهماء والعوام، حيث تميل إلى ممارسة التلفظ وفصاحة الأذن وجر الوعي إلى ممارسة التسطيح»[32] وهو ما يحدث في أيامنا هذه.

كما وضّح حمار الحكيم أكثر من مرة بأنه من السهل ممارسة السياسة ولكن من الصعب جدا ممارسة الكتابة، لأن المواقف المكتوبة لا تقبل التزويق والتملص، أما المواقف المتلفظ بها فإنه ما من شيء يمنعها «أو يعريها أو يكشف تناقضها لو أنها غيرت لونها أو نبرتها أو اتجاه رياحها، فكل يوم هو في شأن، وذاكرة الدهماء قصيرة أو منعدمة، وهي مجرورة ببطونها وليس بعقولها»[33] والحمار هنا يميل إلى الخطابات المكتوبة لا الملفوظة، لأن هذا الأخير لايتغير بتغير الظروف والأوقات.

بعد صبر طويل، وصمت دام سنوات، يخرج الحمار عن صمته إلى الناس كاشفا معريا مقوما وناقدا لهم، يقول موجها خطابه لأهل هذا البلد: «أنتم أهل هذا البلد تكرهون أذكياءكم وأدباءكم والناجحين منكم، تحبون الفشل والفاشلين، الكسل والكسالى، وتحسدون الأدباء والشعراء والخطباء العارفين بالحكمة والمعنى، لوّثتم سمعتكم بأنفسكم، وكشفتم عوراتكم للناس، ومسستم بسمعة أفضالكم، أنزلتموهم إلى مستواكم ظنا منكم بأنكم ستكبرون بنزولهم، غير أنه سرعان ما تبين لكم بأن هبوط الغيم إلى الأرض لا يعني هبوط السماء العالية، فالرفعة في النفس والعمل، ومن ظلت نفسه منحطة وعقله جامدا خامدا يصعب عليه تقدير مواقف الحمار»[34] وهذا الخطاب موجه ليس للحكام فقط، بل لجميع فئات المجتمع.

غياب الديمقراطية في مجتمعنا شكّل محنة بالنّسبة للأدباء، وبهذا ما يؤكده الحمار بقوله: «إن محنة التفكير في تاريخ الحمير تجبرنا على القول بأن انعدام الديمقراطية الحقيقية هو ما جعل الحمير تبقي على الأقنعة التي تختبئ خلفها، لكون قناعاتهم عميقة بأن الحمير بدون ديمقراطية ليسوا حميرا، والديمقراطية بدون حمير ليست ديمقراطية، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النتيجة والسبب»[35] ولهذا اعتمدت السياسات العربية على تغييب الديمقراطية، وذلك لقمع الإبداع ومنع التفكير وقتل التفاؤل.

كما أشار الحمار إلى الخلط الموجود بين كلمة "جنسية" وكلمة "مواطنة" واعتبر هذه الأخيرة مرتبطة بالانتماء والإحساس ودقات القلب ونبض العروق والبذل والعطاء والحب والتضحية.

كما يدعو حمار الحكيم إلى إيجاد رجل حقيقي، رجل يحقق أحلام العرب، حتى لو كان هذا الرجل هو هتلر: «هتلر رجل، وما أحوجنا إلى هتلر عربي، يمحو الذل والعار عن العرب والمسلمين، فإن كان هذا نازية جديدة فأهلا ومرحبا بالنازية التي تزيل الغبن عنا»[36]، وبهذا ينتقد الزعماء العرب وأساليبهم في الحكم، وينسب إليهم حالة الذل والغبن التي آلت إليها مجتمعاتنا العربية، إذ أن الهم الوحيد لهؤلاء هو الجري وراء المناصب وطلب المسؤولية، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أهلا للمسؤولية؟

يتساءل الكاتب عن السبب الذي يجعل من هؤلاء وأولئك« يفرحون للمناصب ويتمنونها لأهلهم وذويهم وذوي القربى والأحباب وانتظار مكرمة تأتيهم منها أو مغنمة يحصلون عليها من وراء التّزلف والتّمسح والتّبوس وحتى الكذب والنّفاق والعياذ باللّه»[37] ليؤكد الحمار مستغربا أنه لم ير في حياته قوما أشجع في طلب المسؤولية قدر شجاعة هؤلاء!! وللّه شأنه ولكن شأن هؤلاء غريب عجيب، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو: ما محل إعراب المثقف العربي في ظل هذه الظروف؟؟؟

يقرّ أغلبية الذين درسوا العلاقة بين المثقف والسلطة بأن المثقف العربي ليس «تابعا للدولة الحديثة فحسب، ولكنه عميلها أو وسيطها الرئيسي بقدر ما هي دولة البيروقراطية [...] فالدولة البيروقراطية الحديثة هي التي خلقت المثقف الحديث، والمثقف الحديث هو المورد الأول للإطارات البيروقراطية التي تسير الدولة»[38]، وفي رأي مساند لما سبق، يرى الناقد إلياس خوري في حديثه عن مأساوية المثقف العربي أنه «مثقف مهزوم، يمارس قمع الآخرين داخل أوالية قمع يتعرض هو أيضا لها، ينتج إيديولوجيا لا علاقة لها بالمعرفة، إلا علاقة الظل بالأصل»[39]

من خلال هذه الثنائية، نخلص إلى أن النسق السلطوي قد سيطر سيطرة كبيرة على هذا النص، بتعرضه إلى علاقة المثقف بالسلطة في البلدان العربية بكثير من المناقشة والمعالجة أيضا. ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو: من المتسبب الأول في الوضع الذي آل إليه المجتمع العربي؟ هل هو السلطة؟ أم أنه المثقف؟ أم أن كليهما ساهم في حدوث ذلك؟

في ظل السياسات التي تتبعها البلدان العربية، والقائمة على الاستبداد والقمع، لم يبق للمثقف العربي سوى حلّين لا ثالث لهما: إما الولاء لهذا النظام والتّغزّل به والاحتفاء به، وإما الصمت وهو أضعف الإيمان، وفي هذا دليل على أن كلا من السلطة والمثقف متهمان في هذه القضية، السلطة بسياستها القمعية وسيطرتها على مختلف الممارسات الثقافية والمؤسسات التي تمثّل الثقافة بصفة عامة، والمثقف بغياب الإرادة والرّغبة في التغيير.

2 ــ علاقة الأنا بالآخر

بتتعدّد ثنائية الأنا والآخر، تتعدّدت بالتأكيد العلاقات التي تربط كل ثنائية، فمثلا علاقة الكاتب بحمار الحكيم هي علاقة مودة وإعجاب واقتداء، وفي هذا يقول الحمار:«غير أني مسرور بمعرفتك، فقابليتك للحوار تجعلني سعيدا برفقتك»[40]، أما الكاتب فقد أعرب عن هذه العلاقة في مواضع كثيرة، يقول: « فإن صراحته ذات العمق والسحر والصدق قد انغرست في قلبي وجعلت شخصيته تأخذ حجمها في نفسي، حتى أنني من شدة حبي له وإعجابي به كثيرا ما صرت أراه وألتقي به في الأحلام»[41]

ويقول أيضا:

«أما الحبيب الغالي فصديقي حمار الحكيم، وأما الفجيعة فحين أبصرت شفاهه مضمدة حتى أذنيه، أما الكمد فحالته التي أحببت أن أشفيه منها بأسرع من البرق

وأعرف أن عزاء الحبيب للحبيب شفاء للروح ومواساة للنفس»[42]

أما بالنسبة للعلاقة التي تربط ثنائية العرب/ الغرب فهي علاقة قائمة على اختلاف، كالاختلاف مثلا في النظر إلى عملية القراءة ودورها في صناعة الحضارة، أما العلاقة التي تجسّدها ثنائية المثقف/ السلطة، فهي علاقة تنافر وتعارض، ويمكن توضيح العلاقة التي تربط الأنا بالآخر في الثنائيات الثلاث كالتالي:

الأنا		الآخر
الكاتب	توافق ⟷	حمار الحكيم
العرب	اختلاف ⟷	الغرب
المثقف	تنافر و تعارض ⟷	السلطة

---

[1] الطاهر لبيب: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز الدراسات العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، ط1، 1999، ص377.

[2] محمد زتيلي: عودة حمار الحكيم – محاورات حرة مع حمار حر-، دار المعرفة، الجزائر، ط2، 2012.

[3] حسين المناصرة: وهج السرد: مقاربات في الخطاب السردي السعودي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1،2010، ص 184.

[4] المدونة، ص10.

[5] المدونة، ص11.

[6] المدونة، ص20.

[7] المدونة، ص22.

[8] المدونة، ص84.

[9] المدونة، ص122.

[10] المدونة، ص87-88.

[11] المدونة، ص128.

[12] المدونة، 129.

[13] المدونة، 132.

[14] عثمان بدري: قمم ونماذج من الأدب العربي الحديث – دراسات تطبيقية-، منشورات ثالة، الجزائر، 2001، ص152.

[15] المدونة، ص233.

[16] المدونة، ص132.

[17] شيلي واليا: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،ط1، 2007، ص34.

[18] المرجع نفسه، ص17.

[19] إدوارد سعيد: المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع،القاهرة، مصر، 2006، ص43.

[20] أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغاربية – المفهوم والممارسة-، دار النشر راجعي، الجزائر، 2009، ص26.

[21] المدونة، ص52.

[22] المدونة، ص54.

[23] المدونة، ص54.

[24] المدونة، ص56.

[25] المدونة، ص79.

[26] المدونة، ص85.

[27] المدونة، ص85-86.

[28] المدونة، ص97.

[29] هاشمي سعيداني: أوديسة العمل الثقافي في الجزائر – سيرة ذاتية-، منشورات التبيين / الجاحظية، الجزائر، 2003،ص10.

[30] المدونة، ص112.

[31] المدونة، ص175.

[32] المدونة، ص176.

[33] المدونة، ص177.

[34] المدونة،ص177-178.

[35] المدونة، ص181.

[36] المدونة، ص190.

[37] المدونة، ص228.

[38] أحمد صدقي الدجاني وآخرون: المثقف العربي: همومه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2001، ص95.

[39] إلياس خوري: الذاكرة المفقودة - دراسات نقدية-، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1990، ص52.

[40] المدونة، ص11.

[41] المدونة، ص45.

[42] المدونة، ص109.